انزياح الشخصية في فضاءات الممارسة
(تجربة ذاتية)

نسيم قبها

المحور الأول:
ارتحالات المجتمع على عتبات المدارس

سؤال فرض نفسه عليّ أياماً وليالي منذ هذه الحادثة، فبعد الارتياح الجميل لريف رام الله الذي ساقني إليه القدر قادماً من الهضاب التي تعلو سهل مرج بن عامر (سلة خبز فلسطين) حيث كانت وظيفتي الحكومية الأولى بمدرسة دير السودان، حيث بساطة الأهل وترحابهم الأصيل الذي يظلل الضيف كأوراق زيتونهم الذي لا يصفر . . . نعم، فكل صباح كان جميلاً بهذه المدرسة . . . المعلمون متناغمون بروحهم الجماعية المتعاونة، حيث يقرع الجرس كل يوم، ويقف المعلمون أمام الطلاب ليعلنوا يوماً دراسياً جديداً، وكنت أحب أن أقف أمام طلاب الصف التاسع، فهم إليّ أصدقاء لحد بعيد . . . ثم يدخل المعلمون لغرفتهم يتمازحون بابتسامات صادقه تعبر عن الألفة ومحبة بعضهم لبعض . . . تتوالى الأيام ليأتي يوم مناوبتي، وكنت ألحظ أن أعداد الطلاب أقل من المعتاد، فلم يسبق هذا اليوم رحله مدرسية؟! قرعت الجرس، ولم يكن زميلي في المناوبة قد حضر بعد؟! وقف الطلاب مصطفين بقاطرات قصيرة متشرذمة، والمعلمون صامتون، والصمت هنا أبلغ من الكلام . . . ! نصف الطلاب ليسوا هنا . . . نصف المعلمين ليسوا هنا . . . حتى مدير المدرسة ليس هنا مع أنه هنا! التجأت لأصدقائي (الصف التاسع) لأسألهم ماذا يجري؟! فأنا لم أرَ في صفوفهم سمحان، ولا عواد، ولا بلال . . . فقد أجابني من حضر منهم عن معركة الليلة الماضية بين العشيرتين اللتين تتألف منهما القرية . . . تقاتل الأقرباء والأصدقاء الأصهار، بعدما تعانقوا متحابين تعانقوا متناحرين! فهي عباءة العشائرية المهترئة . . . ماذا يفعلون وقد ارتحلت المشكلات الآثمة للمدرسة . . . فعشيرة مدير المدرسة بعثت أولادها لمدرستهم، والعشيرة الأخرى أولادهم لن يدرسوا بمدرسة مديرها من عشيرة أعدائهم!

نعم، صفوف القرية والمعلمين والطلاب مقسومة مثل الكوريتين وأكثر . . . ! وأنا كمعلم، كيف ولمن أنحاز؟ وكيف يكون الانزياح!؟

دخل الطلاب صفوفهم دون معلم، وبعد التفكير، توجهت لمعلم مؤثر بسؤال: ماذا تجيب طالبا سألك فيما جرى من شجار بين أهل البلد الواحد لو كنت بمدرسة أخرى؟ أجابني (وكان الكلام معي مباحاً) أن المعلم يرتحل بصفة التعليم داخل المدرسة وخارجها، فلا تأطر عشائري وتعصب على حساب الثقافة، وهذه إجابة معلم آخر من الفريق الآخر في غرفة أخرى!؟ فسألت تارة أخرى: هل الأمراض العشائرية تعمي بصيرة المعلمين والمثقفين؟ الجميع يقول لا لا، تصنعت الانفعال ورفعت صوتي فوق الجميع قائلاً لهم: أين المشكلة إذا؟! تجرأ غير واحد من المعلمين ليعبر عن خطيئته في انسياقه لارتحالات المجتمع الآثمة السلبية للمدرسة ولعقول المعلمين! فقام الجميع واعتذر الجميع (إلا واحد) تصافحوا وتعاهدوا أن ترتحل المدرسة بثقافتها عبر المعلمين للمجتمع، فهذا موقف زاد من إيماني بدوري كمعلم حدوده تتخطى حرم المكان، موقف علمني كيف أتقي فتنة شبيهة لهذه المدرسة (اتحاد الجانية رأس كركر الثانوية)، فوأدْنا الفتنة قبل أن تتصاعد، وسلاحنا كان ثقافة المعلم (وتجارب سابقة) التي يجب ألا تتأطر عشائرياً، فلا تكون العشيرة هي العرف الذي يميز المعلم، بل يجب أن ترتحل المدرسة إلى عتبات المجتمع ارتحالاً ينشر الثقافة السليمة ويوئد العرف الخاطئ.

المحو الثاني:
أنسنة التعليم والصعوبات البيروقراطية

كنت ما أزال في مرحلة الثانوية عندما رغبت وبشدة في أن أصبح معلماً في المستقبل المجهول . . . فقد يكون للمعلم (فاروق) دور كبير في ميولي الجديدة هذه، فهو معلم إنسان، لم أحب درس العلوم كما تولعت به عند هذا المعلم، فالمادة لم تكن جديدة، الجديد شخصية المعلم الذي أخذ حيزاً من تفكيري في ابتعاده عن الحواجز البيروقراطية.

ارتحلت هذه الرغبة لتقترب من أن تكون واقعاً، تخرجت وحملت شهادة تخرجي، تذكرة عبوري لمهنة أحببتها بصدق، ولأن الطريق حافلة بالتعرجات والمفاجآت فقد كانت دهشتي الأولى عندما قابلتني لجنة مختارة من التربية تختبر صلاحيتي المعلوماتية والشخصية لأكن المعلم المطلوب. لم تكن اللجنة متميزة مثلما تخيلت، ظننت أن اللجنة لم تظهر نفسها كما يجب. ذهبت بعد الموافقة على تعييني لمديرية التربية والتعليم لأعرف مكان مدرستي الجديدة الأولى، ثم بدأ العام المدرسي، واجتمع مدير المدرسة بالمعلمين ليلقنهم درساً في كيفية أداء المعلم كما طلبت منه الوزارة!؟

قال لنا مدير المدرسة في الاجتماع الأول: على كل معلم أن يكون جاهزاً للتحضير اليومي، دفتر العلامات، سجل العلامات الجانبية، دفتر الحضور والغياب، المناوبة، دفتر الاختبارات، توقيع الحضور والمغادرة، عضوية اللجان، الإشراف التربوي، خطة معالجة الضعف، متابعة المدير؟! نظرت للمعلمين أثناء حديث المدير، فغالبهم يهز برأسه، ولم أعلم إن كانت اهتزازات فهم أم سخرية!؟ أما أنا فلم أعرف ما أقول؟! اعتقدت أنني أتيت للتعليم، وإذ بالتعليم أهون وأيسر ما في وظيفة المعلم؟! متطلبات ثقيلة على كاهل المعلم الحزين، حتى أن بعض المعلمين اقترحوا على وزارتنا الموقرة أن توظف لكل معلم معلماً يساعده في الأمور الكتابية (معلم يكتب ومعلم يعلم)! غلبت على أمري في عمل الكثير مما طلبه ضابط المدرسة (دون اقتناع) فأنا لم أشاهد المعلم فاروق يحمل غير كتابه ووسيلته التعليمية...؟ والغريب أن وزارتنا الموقرة تنادي باللامركزية وهي مركزية حتى النخاع، تفرض علينا كل الأساليب المتروكة وكل الوسائل التي أكل عليها الدهر وشرب، فقبلت (الوزارة) أن تكون للآخرين محلّ التجربة، فأصبح المعلم مثقلاً بالأوزان التي لا يطيقها كإنسان! أمور كتابية على حساب عطائه في غرفة الصف، تعلمت أن وزارتنا بكوادرها هم بعيدون عن واقع التعليم وكأنهم في عالم آخر، هم يؤمنون بالكذب المكتوب حتى يرضي المرؤوس رئيسه والوبال يصب على القاعدة المظلومة (المعلمين والطلاب)، فالمعلمون تضرب إنسانيتهم، والطلاب دون مستوى أحلام السلطان. إنني مؤمن بضرورة الانزياح الفكري والانقلاب الثقافي داخل شعوري الثوري هذا، فأنا أكثر قناعة بأهمية التغيير لتبديل البيروقراطية الخيالية إلى تطور واقعي.

المحور الثالث: أقدام صغيرة لطلاب كبار

كانت حصة اعتيادية حينما دخلت على طلاب الصف الرابع الأساسي. ولأني كنت أظنهم طلاباً صغاراً، لم أكن لأعاملهم أنهم كبار، فاستعمل معهم كلمات سهلة... كسهولة أعمارهم الوردية، وكانت هذه المرة الأولى التي أدخل فيها على طلاب بهذا العمر... ودامت الأمور على هذه الحال حتى داهمتني نقطة التحول في التعامل معهم، كيف لا وأنا الذي حاولت أن أفرق لهم في درس بين كلمتين تشابهت بينهما الحروف (الحَبّ، الحُبّ) فقلت لهم إن الحَبّ يطحن طحناً ليكون طحيناً، أما الحُبّ فلا إمكانية لطحنه، وما أن انتهيت.. حتى يقف الطالب (أحمد) بعد أن رفع يده مستأذنا بالكلام ليقول لي بكل جرأة مصحوبة بالأدب، يقول: إن الحُبّ يطحن مثل الحَبّ وأكثر؟! فقلت: بانتباه واستغراب كيف ذلك يا أحمد فقال: بوضوح وتجلٍ: عندما يفترق الحبيبان، يطحن الحب يا أستاذ. فطلبت من طلاب الصف، وعلامات التعجب تزف وجهي، أن يصفقوا له وبحرارة ما زالت تعلو جبيني من الدهشة والاسترجاع، أأبقى انظر لأعمار تخطت التاسعة بقليل على أنها صغيرة، أم انزاح عن تعاملي السابق معهم وأقر بأنهم أكبر من ذلك. بدأ الانزياح رغماً عني، فأنا لا أستطيع دخول هذا الصف كما دخلته سابقاً، بدأ ارتحالي معهم بكلمات جديدة توازي نموهم العقلي غير البسيط، وتعلمت منهم كيف أنقد المنهاج الذي يستخف (أحياناً) بعقولهم الكبيرة، فأنا أريد معهم أن توظف لهم الإمكانات ليبرهنوا على جدارتهم التي لم يسمح لهم منهاجنا وثقافتنا أن يعلنوها على الملأ، يريدون وأنا أريد معهم مساحة واسعة من الحرية والتعبير والإنشاء، فهم يستطيعون أن يعبّروا عن ذاتهم شرط أن يجدوا من يسمعهم، أما أنا فلن أبقى شريكاً في ظلمهم لأنهم كبار، والتجربة تثبت ذلك أيضاً.

المحور الرابع: إعادة النظر في ترتيب حكايتي

لطالما أحببت الثقافة وصاحبت المطالعة... وها هو يوم جديد في أيام العطلة الشتوية الأخيرة أقرأ فيه جريدة ليقع نظري على إعلان عن دورة تربوية ينظمها مركز القطان للبحث والتطوير التربوي. إعلان مذيل بأرقام الهواتف للراغبين من المعلمين في المبادرة بالاشتراك. لم أتردد في الاتصال مع أنها المرة الأولى التي أسمع بها عن هذا المركز عن قرب، قبلت لأشترك في دورة موضوعها (التفكير). ذهبت لأريحا وهي المدينة التي اختارها مركز القطان لفعالياته الشتوية، حيث المناخ أفضل في مشتى فلسطين هنا في أريحا. أتيت بعين الناقد المراقب لشخصية المركز الاعتبارية، شاركت وحاورت وتأملت واسترجعت... فأوراق حكايتي مبعثرة، هكذا خلصت بعد لقاء منفتح على النتاجات المتاحة كافة، فها هم معلمون ومعلمات من مناطق شتى بلهجات مختلفة... والإمكانات التي أتاحها المركز بينت لنا بوضوح أن الهمّ التربوي هو سيد المكان، والسؤال بمدى نجاعة سياستنا التربوية هو سؤال مشروع لحد بعيد، ولكن الإجابة ليست بسهولة السؤال، فالدلائل والتجارب الشخصية والمداخلات... يجب أن تكون حاضرة، والسؤال الذي سيكون لي منطلقاً: ما هو مدى قناعتي بجدوى المألوف التربوي؟ وأنا أعلم أن مركز القطان عنده الشيء الكثير، منه ما كنت أعلم ومنه الجديد، وقد قادني المركز بذكاء كيف أتفاعل مع الجديد، حيث تكون المبادرة والمبادأة، قرأت وحاورت لأجد أن حكايتي التربوية بحاجة لإعادة ترتيب وتنظيم، والوقوف عند رؤية القطان التربوية؛ سواء بمجلته رؤى تربوية، أم بالدورات والمؤتمرات... كل ذلك يتوجب مني الوقوف لإعادة النظر فيما مضى، فأنا لم أعرف فؤاد المغربي إلا من جديد، وبصمات إدوارد سعيد ما تحسستها إلا بعد رحيله... ولكن آخر ما سأقول هنا هو أنني سأبدأ من جديد وبعزم جديد لأن الأمر يستحق الانطلاق.

نسيم قبها
منسق منتدى معلمي منطقة يعبد-جنين